اسبوع رشدي العامل في المدى الثقافي

احتراماً لذكرى الشاعر رشدي العامل ومنجزه الثقافي والشعري خصصت ثقافة (المدى) اسبوعاً كاملاً للاحتفاء به وسيكون هذا الاحتفاء (كتابات تأتي وتذهب) بل عن طريق الشاعر نفسه، رسائله، مذكراته قصائده غير المنشورة وحواراته مع الذات والاخرين، وسيكون للقراء كل يوم حصة مفعمة بالشعر والذكريات من رشدي الشاعر والاب والانسان.

رشدي العامل

في اطار استذكار رموزنا الابداعية في مجالات الفكر والفن، تبدأ ثقافة المدى في ارساء تقليد جديد، يسعى الى تسليط الضوء على السيرة الحياتية والمنجز الابداعي لاعلامنا الثقافية التي اسهمت في اغناء المشهد الثقافي العراقي في جميع مفاصله وتركت اثراً واضحاً في الثقافة العراقية.. من خلال تكريس صفحة "ثقافة" لاسم من هذه الاسماء خلال اسبوع.

واختارت الصفحة شخصية الشاعر رشدي العامل لتبدأ به هذا التقليد..

والشاعر رشدي العامل (١٩٣٤-١٩٩٠) هو احد الاسماء المهمة في الشعرية العراقية، بدأ مشواره الابداعي بعد بروز جيل الشعراء الرواد (الملائكة، السياب، البياتي) بداية خمسينيات القرن المنصرم، بمجموعته (همسات عشتروت).. مع مجموعة من مجايليه (سعدي يوسف، سلمان الجبوري، محمد سعيد الصكار) وآخرين.. وكان من اوائل اعضاء اتحاد الادباء في العراق عام ١٩٥٨ وضمن الوفد المشارك في مهرجان الشعر العربي في الكويت الذي رأسه شاعر العرب الاكبر الجواهري.

ورشدي العامل الذي عرف بنشاطه السياسي حيث تعرض اكثر من مرة للاعتقال والنفي، كان من مؤسسي جماعة المرفأ مع اسماء مثل علي الشوك وجيان، وسعدي يوسف وباسم حمودي والصكار.

تتضمن صفحات الاسبوع الاحتفائي برشدي العامل مذكراته وقصائده التي لم تنشر ومجموعة من رسائله وخواطره الشخصية مما يغطي جوانب جديدة من حياته العاصفة الثرية بالشعر والابداع.

قصائد، نصوص، يوميات ،رسائل هو ماتتضمنه هذه الصفحة من اسهامات العامل.

رسالة من رشدي في ذلك الزمن: لم اعد اطيق المرتلين امام المذبح

فاضل السلطاني

في الرابع من ايلول ١٩٧٧، رأيت رشدي لاخر مرة، كان قد سافر معي الى مدينتي سدة الهندية في محاولة اخيرة لاقناعي بعدم السفر خارج العراق قضينا المساء على ضفة الفرات وفجأة صرخ بي، تلك الصرخة التي ستظل ترن في اذني لامد طويل: "ستعود بعد اسبوعين ستحن حتى الى هذه الرمال".

في الصباح الباكر عدنا الى بغداد هو في طريقه الى جريدة "طريق الشعب، حيث كنا نعمل معاً. وانا الى المنفى الذي لا يزال مستمراً منذ ذلك الصباح الأيلولي.

في تلك السنوات المحتدمة، كنا، رشدي وانا واصدقاء آخرون، نشكل ما يشبه عصبة صغيرة معارضة على طريقتها الخاصة، لسياسة الحزب الشيوعي الجبهوية، وبالتالي سياسة الجريدة، لم نكن الوحيدين، ولكن ربما كنا الاعلى صوتاً، وبالطبع، كانت الملاحظات والتحذيرات الحزبية، المبطنة بالوعيد، من مغبة مثل هذا السلوك "اللامنضبط" لا تنتهي كان رشدي محصناً بعض الشيء ، فلم يكن منخرطاً في الجهاز الحزبي التنظيمي بالمعنى المتعارف عليه، بالاضافة الى ثقله المعنوي الكبير، وتاريخه السياسي والادبي ووجود رجل مثل رئيس تحرير "طريق الشعب" السابق عبد الرزاق الصافي، زميله في كلية الحقوق، ورفيق نضاله، الذي كان يتفهم اكثر من غيره، مواجع الشعراء.

تعرفت على رشدي في "طريق الشعب" ذاتها ولم نحتج لوقت طويل حتى اصبحنا لا نفترق يومياً تقريباً.

وحدتنا اشياء كثيرة مشتركة: تقييماتنا لوضع الحزب انذاك، والموقف من الجبهة الوطنية التي لم يؤمن بها كلانا مرة واحدة، والألم اليومي على مصير الحزب الشيوعي بعد تحالفه مع البعثيين، انه الأمل الذي يولده الحب الكبير لكن الكثير لا يفهم ذلك كان الحزب حب رشدي الكبير انه نوع من "الباثوس" الذي يتحول معه الهوى العام الى هوى شخصي، فلا يمكن فصل احدهما عن الاخر لا أتذكر ان الحزب غاب مرة عن احاديثنا منذ ان عرفت رشدي عام ١٩٧٤ حتى مغادرتي العراق بالاضافة الى الحزب، كانت حاضرة دائماً ذكرى زوجته السابقة، وابنه الكبير علي.

حين تعرفت عليه، كانت علاقته الزوجية قد وصلت بداية النهاية، فلم يتح لي ان ارى ام علي سوى مرة واحدة.. بعد الطلاق.

في احدى جلساتنا منتصف النهار، قال لي رشدي فجأة انه يريد ان يراها

- لكن اين يا رشدي؟

- لنذهب الى حيث تعمل.. سننتظر هناك حتى نهاية الدوام اخترنا مقهى في شارع الرشيد على الجانب المقابل من مكان عملها، وانتظرنا خروج الموظفين (كانت تعمل في احد البنوك حسب ما اتذكر). مددنا اعناقنا نتطلع الى الجموع المتدافعة من الباب الرئيسي. وفجأة اشار رشدي باصبعه الصغير المرتعش اليها كانت المرة الاولى التي اراها فيها نصف رؤية هي أقرب الى رؤية ظل يمشي على احد ارصفة بغداد ولا ازال اتذكر عيني رشدي اللتين اتسعتا، ثم ضاقتا ممتلئتين بالفرح والدمع.

اما علي، فهو "رشدي الصغير". "انه انا" كان يقول لي وكان يفتخر ان علياً حرم امه من ان تراه عقاباً لها على ترك رشدي.

كان الفرق بين عمر رشدي وعمري اربعة عشر عاماً، وهو الفرق نفسه بيني وبين علي، الذي التقيت به صدفة في المنفى، واصبحنا صديقين بسرعة ايضاً.

اخذ علي من رشدي الكثير: عنفوانه وجموحه، نقاءه واستقامته، وقدرته على التمييز السريع بين الزائف والاصيل في الحياة، وفي السياسة ايضاً، واخذ منه ايضاً ضحكته الحاضرة دائماً، وحبه الصوفي للخمر والنساء.

من خلال علي، الذي قاده المنفى من روسيا الى دمشق، حيث التقيت به، ثم الى ليبيا، تواصلت مع رشدي بعد انقطاع طويل، لم اكتب اليه سابقاً، ولم يكتب لي. كيف كان يمكن ان تصل الرسائل الى العراق، وتخرج منه في ذلك الزمن الرهيب؟

تبادلنا رسالتين منهكتين من السفر: من دمشق الى طرابلس بليبيا، ومن طرابلس الى بغداد مع التحية من بغداد الى طرابلس، ومن طرابلس الى دمشق مع التحية.

تسلمت اخيراً رسالته الاولى، المؤرخة في الثاني والعشرين من ايلول، ١٩٨٨، بعد احد عشر عاماً من المنفى.

انه رشدي، اذاً، كما تركته بحبره الاخضر، وخطه المائل وكأنه يلهث على الورق، وقبل كل شيء، بروحه الابية التي لا يمكن ان يكسرها شيء، تلك الروح الصافية التي تكدرها مجرد فكرة اللقاء بجوقة المرتلين امام المذبح: "لعلك تسأل عن حياتي هل تصدق اني في حالة رائعة احسد عليها فلم يعد هناك ما يثير تطلعي، حتى اني لم اعد اعرف كيف ابكي لقد تصلبت مشاعري ايها الصديق أيكفي هذا؟ لا أمل ابداً ليست اية نافذة، وعلى المرء ان يقنع بما تمنحه الجدران الصماء هذا كل شيء، ومع احتفاظي الاكيد بالحب الحقيقي لبعض من غادر حياتي، فلم اعد اطيق فكرة اني سألتقي بافراد جوقة المرتلين امام المذبح. لقد تحول طعم النبيذ الى رماد.. ولست آسفاً على شيء بتاتاً".

وكتب في نهاية الرسالة: "ارجوك ان لا ينازعك شعور بإني اتذمر، لا، هذا قدري، وعلي وحدي مسؤولية حمل اثقاله، اما الآخرون، وتفهم ما اعني، فلا زاوية لهم في تاريخي، لقد اهلت على اسمائهم رمال النسيان".

لم يبق احد لرشدي سوى الشعر، الذي لا يمكن ان يخون ابداً. كان محوره الوحيد، الذي ظل يدور عليه بعد غياب الحزب والزوجة والابن: "لعله يسرك ان تعلم اني اكتب باستمرار، وان الغضب البارد يجد منفذاً طيباً خلال هذه الكوة العالية: الشعر: البركة: الاخيرة: النسيان".

كان الخوف على رشدي هاجسنا في السنوات الاخيرة وكانت بعض الاخبار غير الدقيقة تصلنا بين فترة واخرى. واذكر ان علي طرق مرة علي الباب في الفجر الباكر، بعد ان قضى الليل كله هائماً في الشوارع، ليخبرني ان رشدي قد مات وقضينا النهار كله نتحقق من صحة الخبر، الى ان تأكدنا من انه كاذب تماماً كانت دمشق ابعد اقطار الدنيا عن العراق.

في التاسع من ايلول ١٩٩٠ هبط علينا الخبر الصاعق مرة اخرى، توسلنا بكل شيء ان يكون خبراً كذوباً كسابقه، لكنه كان صادقاً هذه المرة: مات ابو علي.

الحسين يكتب قصيدته الاخيرة

ها أنا الآن نصفان
نصفٌ يعانق برد الثرى
ونصفٌ يرف على شرفاتِ الرماحْ
ها أنا والرياح
جسدي تحت لحدي ورأسي جناحْ
ها أنا بين رمل الصحارى
ولون السماء
ها أنا في العراءْ
انكرتني ضفافُ الفرات
فلم ألقَ قطرة ماء
في رمال الجزيرة ضيعت إسمي
وغادرني الانبياء
فاقطع الآن من جسدي ما تشاءْ
سيفل الحديد الوريد
جرب الآن في جسدي ما تريدْ
ذاكِ رأسي على طبقِ باردٍ يا يزيدْ
جرب الآنِ ما تشتهي
هل تعيد
يوم بدر
اذا صهلت في الفيافي الخيولْ
أم تعمم سفيانِ في ليلة القدرِ
ترضي معاويةٍ والوليد
لجناحي ترف الغصون
وترنو إلي البتول
ويقبل ثغري المدمى الصحابةُ
يبكي علي الرسول
فاضرب الآن في جسديا ما يزيدْ
وزع الآن ما يشترى
وزع الآن من جسدي دمهُ، ثغرهُ
حلم عينيه فاليوم عيد
غير ان السموات تبكي
وثغر النبي يقبل ثغر الشهيدْ
❖❖❖
زينبُ وحدها في البراري
تحمل الرأسَ رأسي الى الشامِ
حتى الرمال
أخرجت ما تضمُ من الماءِ
وأنسلَ من جوفها
النهر يدعو تعالْ
أبها الرأس أسقيكَ ماءً زلالْ
❖❖❖
وحدها في البراري
زينبُ تلثم الرأسَ كي تستفيقَ الصحاري
وحدها في البراري
بين رأسي مخضبةً والرجالْ
❖❖❖
ذاك إبني تناوشه في الصحاري الخيولْ
فاستفيقي اذنِ، يا بتول
ايقظي السيف في كف حيدرَ
سلي من النومِ عين الرسول
❖❖❖
ذاك رأسي تبعثر بين الرؤوس
بين برد السفوحِ
ورملِ الصحاري
صارخاً بين نوحِ والحمام
وضربِ الفؤوس
ويزيدٌ تمطى بحضن الجواري
عارياً مثل صبارةٍ في القفار
وانا ارتدي الدم احمر كالجلنارِ
واغطي جبيني المخضب بالارجوانْ
تلك عينيَ مفتحةٌ
وعيونكَ مغمضةً يا يزيدْ
هيأ الان عرسكَ فاليوم عيدْ
❖❖❖
في اعالي الفراتْ
صعدت للسفوحِ الظهيرةُ
مرّت بها زينبٌ تحمل الرأسَ
صامتةً في الفلاةِ
فانحنى النخلُ
واستيقظ الماء في السعفِ
أزتْ صخور الفراتْ
وحطت على دربها القبّراتْ
زينبٌ في اعالي الفراتْ
مرحباً يا فراتْ

خانك الماءُ في الصيف،
واستل منك الحياة
انت اغرقت في ساعة الصفر،
ارواحنا المزهراتْ
وسطوتَ علينا،
سرقتِ نواعيرنا المثقلاتْ
مرحباً يا فراتْ
ايها العاشقُ الشيخُ،
خان العهود
حجبت حماماتنا،
ثم اطلقت فينا الفهودْ
فالنجوم مسورةٌ
والصباحات سودْ
❖❖❖
جربْ الان ما تشتهي يا يزيدْ
جسدي في ثرى كربلاءِ،
ورأسي بعيد
عانقتني السيوفُ الصفاحْ
وغزتني الرماح
ومشت فوق ما بعثرتني الخيولْ
غيران السيول
حين تاتي،
ستجفل من صوتها صهوات الخيول
❖❖❖
تتوهج في جسدي جمرتانْ
تتفتح في مقلتي زهرتانْ
تتمايل فوقَ جبيني المخضبِ،
تقفو خيوطُ الدم في وجنتيَ خصلتانْ
ها هنا عالمان
بين روحي تفرِ من الجسدِ المطمئنِ
وجراحي تنزّ..
هنا عالمان
عالم خانه ناسهُ
وثانٍ، سيأتي على مهلٍ، لم يخني
❖❖❖
جرب الان في جسدي ما تريدْ
فسأبقى الحسينَ،
وتبقى، إذا ذكر الناسُ،
هذا يزيد
❖❖❖
غادرتْ نزهة العيد،
هذا اوانُ الحساب
اوقدي النارَ في موقدي يا ربابْ
ودعي الجمرَ يلوي اكف الحرابْ
أوقدي النارَ في جسدي يا رباب
ودعي قطر من دمي
تتمشى مع الماء في قهوة الصبح،
على الفناجينِ تسقي الشفاه
ولعل الوجوه التي انكرتنيَ
تغسل اهدابها بالمياه
ولعلي اعود
على غيمة من وعودْ
بين برقٍ يتلألأ في افقكم والرعودْ
سيهزُ الجزيرة صوتي،
ويوقظ حتى اللحود
❖❖❖
منذ ألف تقمطني الامهاتْ
ويرضعنني من حليب الصدورْ
منذ ألف تكفنني الثاكلات
ويغرسَ حولي النذورْ
منذ الف يمدُ الجذورْ
دمي المستباحُ،
الى نخلة في اعالي الفراتْ
منذ الفٍ،
أدورُ، ادورُ،
ادورُ وأبقى ادورْ
مرحباً يا فرات
مرحباً يا نخيل الفراتْ
مرحباً يا رجال الفراتْ
مرحباً ايها الأمهاتْ
مرحباً يا فرات
مرحباً يا فرات..

تشرين الثاني ١٩٨٩

بغداد الراية

(بغداد.. ليست مدينة عندي، ليست شوارع، فقط، وانما تجعله جزءاً منها وهو ما قدرت عليه بغداد.

ليس لانها مدينتي، اقول هذا، ليس هو ما من اجله احرق اصابعي العشر بخوراً عند قدميها الدمويتين وانما لانها اذ تذكر يذكر معها اثنا عشر قرناً من تاريخ الانسان على الارض، واذن فلانها احتضنت اثني عشر قرناً من تاريخ هذا الكائن الفذ، عبقرية وسقوطاً ونهوضاً وجبروتاً، فناً وفكراً وادباً وموسيقى، لانها استضافت طيلة هذه المدة حضارة ما قبلها، ووهبت هذه الحضارة نسغاً جديداً ولا تزال، استحقت ليس ان ننحني امام ازقتها الموغلة في عتمات التاريخ حسب، وانما ايضاً ان نجد لها كلمات جديدة.

وبالنسبة لابياتي المتواضعة عن بغداد لم اكن اتمثلها الا كائناً بشرياً لم استطع ابداً ان اشاهد جداراً قديماً دون ان تغمرني وجوه ملايين الناس الذين عاشوا هذه الجدران.

وايام كنا نقاوم كانت بغداد رمزاً، وكنت احس ان اية قوة لم تكن تستطيع انتزاع هذا الرمز ابداً. فان كنت قد استطعت تمثل اعراس بغداد خلال الالم فللتعبير عما احسسناه زمن لم تكن لنا اعراس.. تلك هي القضية).

يوميات

٦-٥-١٩٧٨

قضيت يوماً كسولاً قرأت اعداداً كثيرة من الصحف العربية ولم افعل شيئاً آخر سوى مقطع من قصيدة كتبته قبل قليل والساعة الثالثة والنصف صباحاً كانت رحلة الاحلام امس الاول وبعد عودتي من حفل قصر بغداد، شاقة ومضنية.. ففي اللحظات السعيدة التي امضيتها في الحفل كنت نهب التفكير بتلك المقالة البائسة في الراصد.

لا ادري اذا كانت هذه البداية بطريق شاق آخر ام لا.. غير ان الغضب والاشمئزاز كانا يرافقانني طيلة اليوم.

لقد تذكرت انهار الدم في هذا الوطن!

تذكرت عبارة لدانتون عندما جلس ملوك واباطرة اوربا يعقدون الاحلاف ضد الثورة الفرنسية.

ان ملوك واباطرة اوربا يعقدون الاحلاف غير المقدسة ضد الثورة وها نحن ندحرج اليهم رأس لويس السادس عشر عربوناً على هذا الرهان.

ترى أي رأس سندحرج نحن؟

في حفلة بغداد، همست لي احداهن، لم اكن اعرفها:

-انت الوحيد الذي رأيته يبكي في حفلة المقر العام.. لماذا بكيت؟

كانت صبية ناعمة حلوة.

- كنت فرحاً هذا كل شيء

همست بخجل الصبايا

-لقد وددت لو جئت الى جانبك آه من تلك الاشياء الصغيرة، نسغ الحياة وطعمها ولونها

اظن انني سأمضي بقية الليلة مع ريتسوس، وربما مع احلامي بالمرأة التي حدقت في المرآة ذات يوم ورحلت.

هذه هي الخيوط الاولى من الفجر تتسلل عبر سعفات النخيل.. انا بانتظار هذا الصديق القديم.